تتمة المحاضرة الثانية

الحالة الاجتماعية:

بقي العرب محتفظين بتكوينهم الاجتماعي وكيانهم القومي، ولكنَّ التَّزاوج حصل بكثرة في أواخر عهد الدّولة، كما امتزج الأتراك بسكان آسيا الوسطى الأصليين.

وإذا ألقينا نظرة على تكوين المجتمع في ذلك العهد وما فيه من فئات وطبقات، وجدنا فيه شَتَيْتاً من الأجناس والأصول، وهذا المجتمع أشبه بالهرم الذي يعلو قمته فئة أعجمية تَجْسُم على صدر البلاد ممثلة بالسلطان، والصَّدر الأعظم، وكبار الأمراء ،وقوَّاد الجيش، وذوي القصور الذين كانوا يعيشون في ثراء ونعيم، وهم أخلاط من عناصر غير عربية، يغلب عليها العنصر التُّركي، وربَّما كان فيهم قلة قليلة من العرب، وكان لهؤلاء من الإقطاع الذي يمنحهم إيَّاه السُّلطان ما يؤمن لهم موارد الحياة وبحبوحة التَّرف. وَ يَلي هؤلاء أصحاب العصبيات من الزعماء والوجهاء، وشيوخ العشائر الذين أقرتهم الدَّولة على مناطق نفوذهم مقابل ما يقدِّمونه للدَّولة سنوياً من أموال تُفرض على مناطقهم.

وتأتي بعد ذلك طبقة موظفي الدَّولة والتُّجار وأرباب الصِّناعات من أصحاب المنزلة الوسطى الذين يعيشون عيشة الكفاف إلى جانب جماعة العلماء الذين يتخرجون عادةً في المعاهد الدينية كالأزهر وجامع الزيتونة، أو في حلقات العلم المختلفة، وكان هؤلاء يُعْفَوْن من الضَّرائب والخدمة العسكرية.

وفي الدَّرك الأسفل من ذلك الهرم البشري يأتي العامة من العمال والصُّناع والفلاحين ومن إليهم، وهؤلاء كانوا في ضنكٍ شديدٍ، ووضع اجتماعي جائر ومعاناةٍ قاسيةٍ لمتاعب الحياة ومشاقها، وضمَّ ذلك المجتمع أيضاً فريقاً من اليهود الذين قَدِموا من إسبانيا والبرتغال عقب خروج العرب من جزيرة الأندلس.

الحياة الفكرية والثقافية:

لم تنل اللغة العربية في أيام عهد آل عثمان ما تستحقه من عناية واهتمام، وبدأ الضَّعف يسري إليها لا سيما في الأوساط الرَّسمية؛ لفقدان العوامل المؤدية إلى نهوضها وتطورها.

هذا إذا ما امتحنت به الحياة الفكرية والأدبية والعلمية بالاستيلاء على معظم نفائس التُّراث العربي من الكتب والمؤلفات، إذ حَملها العثمانيون وعملاؤهم من شتى العواصم العربية إلى إستنبول كما نقلوا كثيراً من العلماء والأدباء والوراقين لِيُحَوِلُوا أنظار النَّاس إلى عاصمة سلطنتهم ولكن لم يتمُّ كاملاً ما أرادوا؛ لأنَّهم لم يخلقوا للعلم والأدب والثَّقافة، فلا غُروّ[1] أن تجد الحياة العلمية في جمهرتها راكدة والفكر المبدع مغلولاً، هذا إلى أنَّ البلاد العربية حُرمت من ثروة ثمينة ومنبع حضاري وثقافي ،وشَحت موارد الأوقاف المخصصة للعلماء والطلبة، فتقربوا يطلبون العلم أو يُدَرِسون بدوافع ذاتية وحبّ للنَّهل من هذه الموارد، ولولا ذلك لكسدت سوق العلم والثَّقافة كساداً تماماً.

كان من نتائج هذه الفوضى الثَّقافية والفكرية أن ضاقت آفاق العلم، وانتشر الجهل والأميّة، وكاد ينضب مَعِين الثقافة والأدب، وضَعُفَت أذواق الأدباء، وتراجعت العربية، وحلَّت العجمة محلَّ الفصاحة، وعاش الشَّعب أيام العثمانيين في جوّر راكد كادت تُوءَدُ فيه

---

[1] – غُرُوّ: عجب.

معظم البواعث التي تدفع إلى علم، أو فنٍّ ذي قيمة لولا بصيصٌ من نور كان يشع من الأزهر وجامع الزَّيتونة وبعض المدارس ومجالس العلم، وانصرف جمهرة النَّاس ولاسيما الفقهاء إلى الزُّهد والتَّصوف، ورعت الدَّولة ذلك، وأنشِئَت الزَّوايا والتكايا وشجع العثمانيون هذا الاتجاه؛ ليصرفوا النَّاس عن البلاط وما يجري فيه من جهة، وليعطوا دولتهم طابِعاً إسلامياً وهالة قدسية من جهة أخرى، ولا نكاد نجد شاعراً أو عالماً إلَّا وهو ينعت بالتَّصوف.

وهكذا كانت الحياة العلمية والفكرية في هذا العصر تكاد تخلو من الأصالة والإبداع؛ فهي تتخذ سبيلها في شعاب التَّقليد والاتِّباع، ذلك لأنَّ العلم لم يكن يعني عند المرء اكتساب معرفة جديدة، بل يعني التَّمكن إلى أقصى حدٍّ مستطاع من المادة التي قدمها له الأجيال القادمة، وعلى الرغم من هذه الصورة القاتمة لم تندثر معالم الحياة الفكرية، وإنَّما بقيت في بلاد الشَّام ومصر والعراق موئلاً للعلم والأدب وقد نبغ عدد من العلماء والأدباء والفقهاء والشُّعر في مختلف البلاد.

ولقد كان التَّعلم خاصةً من أهمّ المؤثرات في الحركة الفكرية، وكان الطَّلبة يَدْرُسُون أولاً على آبائهم وعلماء بلدتهم، ثمَّ يرحلون إلى بلدان أخرى، اشتهرت فيها مدرسة أو حلقة لعالم متبحر أو مسجد يضمُّ حلقات متنوعة، ثمَّ يعودون إلى مسقط رؤوسهم بعد أن يتضلَّعوا من العلوم ويتصدَّرون للتدريس، أو لا يعودون، بل يتابعون رحلاتهم العلمية واتِّصالهم بالعلماء حتى يستقروا في بلد آخر، ولكن ذلك كلَّه اقتصر على فئة محدودة حملت تلك المشاعل.

وكانت المدن الكبرى آهلة بالعلماء والمدارس في مصر وبلاد الشَّام، وقد بقيت هذه المدارس إلى وقت متأخر ،وإِنْ بدأ عددُها يتناقص، كما كانت المساجد أشبه بالمعاهد يُقبل عليها العلماء والمتعلمون من كل حدبٍ وصوب كما كثرت الكتاتيب وهي أشبه بالمدارس الصَّغيرة، يتلقَّى فيها الصِّبية تعلم القرآن الكريم ومبادئ الدِّين والقراءة والكتابة والحساب.

وكان إنشاء المدارس المنظمة مختلفاً من عوامل الحياة الفكرية ونشاطها إلى جانب الأزهر والزيتونة والنَّجف، وهي مدارس تقليدية ارتبط إنشاؤها بالميسورين من الأمراء والقواد والعلماء والقادة، وهذه المدارس تعنى بتدريس العلوم النَّقلية والعقلية من تفسير وحديث وفقه ورياضيات وطب وفلك ومنطق وعلم الكلام بالإضافة إلى علوم الآلة.

الكتب والمؤلفات في العصر العثماني:

معظم أعلام هذا العصر جمعوا بين علوم مختلفة من ألوان المعرفة التي كانت آنذاك، وقَلَّ أن تجد عالماً يقتصر على علم واحد يتخصص فيه ولا يتجاوزه إلى غيره، وكثيراً ما يضيف إلى ذلك نَظْم الشِّعر وكتابة النَّثر الفني، **فشهاب الدِّين الخفاجي** مثلاً برع في عدة علوم ومعارف، فله في التَّفسير حاشية على تفسير البيضاوي في ثمانية مجلدات، وأَلَّف في اللُّغة (**شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدَّخيل**) وفي التراجم (**ريحانة الألباء**)، كما أنَّ له ديواناً شعرياً كاملاً يجمع أشعاره كلَّها.

وينسحب ذلك على المؤلفات التي غدت بلا نظام في كثير من الأحيان، فقد يجمع الكاتب الواحد علوماً شتَّى يحار الباحث فيها أين يسلكه، أفي كتب الأدب، أم الثَّقافة العامة، أم التَّراجم، مثل: (**الكشكول، المِخْلاة، خزانة الأدب**) ولا مِراء أنَّ مؤلفات هذا العصر يقل فيها الإبداع والنُّبوغ والأصالة وأكثرها جمعٌ وتصنيف، وقيمة هذه المؤلفات لا

تأتي من عمق التَّفكير وجُرْأَتِه؛ بل من الذَّاكرة الجامعة والتَّطبيق الجَلِد الصَّبور، ومع هذا كلُّه تظل كتب العصر العثماني بمنزلة خزائن للعلوم والآداب.

حالة الأدب عامَّة:

اتَّخذ الأدب سبيله إلى الضَّعف والتَّراجع، وقَلَّ فيه الإبداع والابتكار والحرص على الخَلْقِ الفني؛ فقد جعل الأدباء تجربتهم الشُّعورية أسيرة التَّقليد، وكثرت في ذلك العصر أشعار الفقهاء والعلماء الذين أوتوا موهبة النَّظم لا سليقة الشِّعر، وقَلَّ المتفرعون للقريض.

عوامل تراجع الأدب:

١. إلغاء الأتراك لديوان الإنشاء الذي احتضن في عصر المماليك أكابر الكتَّاب.

٢. حلول التُّركية محل العربية لغة رسمية في البلاد.

٣. فقدان تشجيع السَّلاطين للأدب والشِّعر ولا شك أن تردي الأدب لم يكن على درجة واحدة حتى في آثار الأديب الواحد أحياناً، وأنَّ حَظَّ البلاد العربية من كساد سوق الأدب مختلف متفاوت، فالحكم على أدب هذا لعصر شعره ونثره لا يجوز أن يكون عاماً شاملاً، بل ينبغي الحذر والتأني في إصدار الأحكام.

تصويب، ص٦، السطر العاشر، (التشريح) الصواب: (التشريع).

ص٧، السطر الثالث، الحاشية: (يذؤب: يبدأ) الصواب: يَدْأَبُ: (يواصل)